

نخبة الدهر

في عجائب البر والبحر

كثير من كتبنا كادت تفقد بنة لو لم يتداركها الافرنج بابتياها منا اولاً وينشرها بالطبع ثانياً ومن جملة هذه المخطوطات هذا الكتاب لشمس الدين ابي عبد الله محمد ابن ابي طالب الانصاري الصوفي الدمشقي المعروف بشيخ الربوة . فبينما نجد من نسخ هذا التأليف اربع نسخ في شمالي اوربا فقط الاولى في كوبنهاغن والثانية في لندن والثالثة في بطرسبرج والرابعة في لندن وفي هذه عدة نسخ منه لانجد من هذا الكتاب الذي ألف في دمشق بل ولا في سورية نسخة مخطوطة فيما نعلم حتى تداركه كل من المستشرق فرين الرومي والمستشرق مهران الدانيركي وطبعاه سنة ١٨٦٥ م ١٩٨٦ هـ ونسخ طبعه اليوم عزيزة جداً كسائر الكتب العربية التي يطبعها المستشرقون في اوربا لمنفعتهم الخاصة في الاكثر

وشيخ الربوة هذا كان من اعاجيب الدهر معاصراً لابي الفدا صاحب حماة العلامة المشهور قال فيه صاحب الدرر الكامنة انه كان يصنف في كل علم سواء عرفه ام لا لغرض ذكره . قال الصفدي ولد سنة ٦٤٥ وعاش الاشغال فخر في علم الرمل والافاق ونحو ذلك وكان ذكياً وعبارته حلوة ماثلة محاضراته وكان يدعي انه يعرف الكيمياء ودخل على الافرقم فاودعهم شيناً من ذلك فولاه مشيخة الربوة وله السياسة في الفراسة مطبوع وله غيره مثل كتاب في الاصول ومن شعره

لنفس وجهان لانفك قابلة مما تقابل من عال ومستقل
كفحلة طرفاها سيفه مقابلة فيها من السع ما فيها من العسل

توفي في صفر سنة ٧٢٧ بعد ان لحقه صمم قبل موته وذهبت عينه الواحدة وكان صبوراً على الفقر والوحدة كثير الآلام والافواج وكتابه هذا « سيف العلم بهيئة الارض واقاليها واناسيها واختلاف القدماء في ذلك وعلاقتها ومعهمها من البحار المنصلة والمنفصلة والجزائر والجبال والانهار والجرارات والآجام العظيمة والعيون والممالك

ومسالكها والامصار الكبار ورسانيقها والآثار القديمة والعائير العظيمة والعيون والآبار
والينابيع العجيبة والحيوان النادر الشكل والنبات الغريب والمعادن الذائبة المنطرفة
وتوابعها في المعدنية والاحجار الشريفة الثمينة والتي تليها في الشرف والقيمة والتي تلي ذلك
مما هو مماثل من التراب لوصف خاص او خاصة ذاتها ووصف الواث الاحجار الثمينة
وطبائنها وخواصها ونعت بقاعها ومعانها وذكر اسباب توليدها على ما ذكره الاقدمون
وذكر مساحة الارض ومسافات اقسامها بالاسان والاميال والبرد والفراسخ والدرج
الفلكية وأطوال الجبال وعرضها ونعت الام المبثوثين فيها وذكر معالم انسابهم وآبائهم
الاواين وذكر عامة اختلاف الام المشهور بين منهم ونعت خلقهم وذكر خصائص
البلاد المختصة ببقعة دون بقعة وبلد دون بلد وذكر ظواهر خصائص البشر المشتركة
فيها مع النوع الانساني دون باقي الحيوانات ونعت معالم رسوم الملبين واسماء شعورهم
واعيادهم وقراينهم على ما وجد من آثار علومهم وما يتعلق ب لوازم ذلك ولواقعه وختمته
بصورة جغرافية دهانا بالاصباغ وتخطيطاً محمراً على مثل مواقع الاطوال والعروض
والاصقاع في المعمور لتكون مثلاً حياً مشاهداً بالحس يشهد منه ما وضعت وصفه من
الهيئة وليكون الوصف برهانا لما مثلت أمثله بالجغرافية المذكورة وكل ما هو من الدهان
بها أزرق فهو مثال بحر مالح صفر او كبر دق او عرض وفي الزرقة من لون مخالف فهو
مثال جبل او جزيرة وكل ما هو في ذلك وفي باقيها من لون اخضر فهو مثال بحيرة
حلوة ونهر جار وكذلك طال او قصر دق او عرض وكل ما هو فيها من لون جداري
او خمرى او اصفر او مجرى او ابيض او غير مستطيل مخطط خطوطاً بالسواد فهو مثال
جبال وريوة مشهورة وكل ما هو صورة خط اسود مستطيل من مشرق الجغرافية الى
مغربها فهو مثال فصل ما بين اقليم واقليم من الاقاليم السبعة وما وراءها وما خلف خط
الاستواء منها وكل ما صورة عمارة وتفصيل حجارة بالتخطيط فهو مثال سور أو برج أو مدينة
أو هيكل مشهور في الارض »

هذا ما قاله المؤلف في وصف كتابه وهو كما تراه يحوي غير من الجغرافيا فنونا كثيرة مثل
علم طبقات الارض وعلم المعادن وعلم خصائص الشعوب وعلم الاسان وعلم الحيوان وعلم الانساب
والتاريخ والآثار وغير ذلك وقد اجاد كل الاجادة في وصف جغرافية بلاد الشام بحيث
يصور لك حالتها في القرن السابع والثامن والغالب انه طافها كلها ولم يقصر في جغرافية
مصر عن هذه الغاية . اما في بحثه عن الآثار فانه في الغالب ينقل كلامه عن

الافواه او عمن النوا في القصص والحكايات ليدعشوا العامة وهذا يؤخذ كلامه
بالحذر خصوصاً وكتابه قد وسمه بعجائب البر والبحر فهو يحشوه من هذا القبيل ومنها
المفيد مع ذلك

اما في الجغرافية فقد وصف فيه بلاد السودان والزنج والبربر وغيرهم في أواسط
افريقية ما لم يطلع عليه علماء الجغرافية الا في العهد الاخير وكذلك وصف من امم جزائر
البحر المحيط الهندي وما والاها من الامم واورد من اسمائهم ما لا يعرف الا في
حرف بالطبع لان طبع هذا الكتاب يلب عليه التعريف في الاكثر اما في اوربا فقد
الم الماما خفيفاً ببعض مدن جنوبها اما شمالها فاكتفى على عادة اكثر جغرافي العرب
بان قال انه يسكنها اقوام من الافرنج اما اميركا فلم تكن قد كشفت في عهده ولكن
اجاد في الكلام على بحر الفلمات والافيانوس الاطلانطيكي وما فيه من الجزر وعلى
سواحلها من المدن وبالجملة فان الكتاب نافع يدل على ارتفاع ذلك القرن وفيه
بعض صور ولكن لا كما في اشار اليها في مقدمته من الاصباغ الملونة والتفريق بين
المدن والاصقاع بالوان متباينة ولكن ما فيه من الصور يدل على تفنن وان قومنا العرب
كانوا ايام حضارتهم أشبه بحال الغربيين اليوم يميلون الى تصوير المواد العلمية وان كان
الاوربيون مبالغين في ذلك حتى يكادون لا يصدرون كتاباً بدون صور

وهالك الآن نموذجات نقلها من الكتاب دلالة على فضل مؤلفه خلافاً لمن رماه بأنه يخلط
في تأليفه فما منا الا من رد ورد عليه وكفى المرء نبلاً ان تعد معايبه

قال شيخ الربوة في ذكر توليد الجبال والهضاب والرمال والكلام على كيفية تكوين
ذلك وعلمته وسببه : قال العلماء بذلك ان الجبال الصغار والتلال قد تكون من الزلازل
الكائنة من الرياح المحتونة في الارض المتوجة تحتها حيث ترفع بعضاً وتخفض بعضاً ومن
صحته ذلك انه في سنة ثلاث وعشرين وسبع مائة كان المطر في الشام قليلاً وقصرت
ينابيع العين ارسل الله عز وجل زلزلة في ايام الصيف فخرجت العيون وزادت الانهار
زيادة بقدر ما كانت ثلاث مرار واربع مرار وهذا صحيح وقد يكون باستيلاء الرياح
العاصفة على بعض اجزاء الارض بالكشف والحفر الى ان يصير ما غلبت عليه نوراً ومن
صحته ذلك انه في سنة تسع عشرة وسبع مائة كان على الجبل الافرع شجر زيتون كثير
نيف على ثلاثمائة فحمله الريح الى ارض بعيدة بقرابه وكانه لم يكن مخلوقاً الا من تلك
الارض وكانه لم يكن على الجبل شجر مزروع قط وفي تلك السنة ايضاً حملت الريح

دير آ يقال له دير سمعان قريب من تلك الارض بمجاردة. ورحبته وما كان سيفه الدير من قبحهم وخزيتهم وبقرم ودوابهم وعددهم حتى كأنهم لم يكونوا ولم يعلم لهم خبر ولم يطلع لهم على أثر وسطر بذلك محضر شرعي وطلعوها الى السلطان محمد بن قلاوون خلد الله سلطانه ورحم ملوك المسلمين اجمعين . وفي سنة سبعائة نزل جبل عال شامخ في بيت المقدس بقرب من هين فروج التي على الطريق فيقدر ما كان مرتفعاً توطأ فيه الارض وهو الى الآن ارق مياه لتنفق لها حركة على جزء من الارض دون الآخر فيحفر مايسيل فيه وتهي ما لايسيل فيه رايك ثم لانزال السيول لغوض في الجزء الاول الى ان يعود غوراً ويبقى ما تعرف عنه سامياً ومن العجب العجيب مغارة بالشام يخرج منها جدول ماء مايجاوز كمبي قدم الخائض فيه فاذا دخلها الانسان وجدها واسعة طويلاً المدى نحواً من اربعة آلاف خطوة تحت الارض والماء يقطر من جوانبها وهي كهورة الأزج الطويل والقبو المبني ولكنها مغارة متقوتة وتجذ تحت كل ماء قطر من سقفها شجرة جامدة من الماء المتقاطر مختلفة الالوان والشكل فمنها كهنة العسل في لونه وكهنة النار وهيئة النجوم وهيئة الاعضاء وهيئة الحبوب وهيئة النفل وهيئات منوعة وكلها شجرة جامدة من تقاطر الماء . أصباغها صادقة في الحمرة والسواد وغيره وسميت مغارة العجب لذلك قالوا وقد ننكون أنواع الحجارة في النار

وقال في ذكر نوادر الاشجار الثمينة المهدي بها بعض الملوك الى بعض وذكر قيمتها ومن ذلك ما وجد في خزائن الخلفاء والوزراء من الجوهر النفيس والدخائر الفاخرة الدرة القيمة وسميت بذلك لانها لم يوجد لها في الدنيا نظير حملها . سلم بن عبد الله العراقي الى الرشيد فابتاعها منه بتسعين الف دينار ^(١) ومنه الفص الياقوت الاحمر المسعى بالجبل كان وزنه اربعة عشر مثقالاً ونصفاً اشتراه الرشيد بثمانين الف دينار وكان للذوكل فص ياقوت احمر وزنه ستة قرايط اشتراه بستة آلاف دينار وكان له سمجة فيها مائة حبة جوهر وزن كل حبة مثقال اشترى كل حبة منها بالف مثقالاً . واهدى بعض ملوك الهند الى الرشيد قضيب زمرد اطول من ذراع على رأسه تمثال طائر ياقوت احمر لاقية له فتوهم هذا الطائر بمائة ألف دينار . ودفع مصعب بن الزبير حين أحس بالقتل الى مولاه زياد فصاعاً من الياقوت الاحمر وقال : أنج بهذا كانت قيمته الف الف درهم

وسقط من يد الرشيد فص من ارض كان يتصيد بها فاعتم لفقده فذكر له فص

(١) راجع بحث ثروة العرب في المجلد الثاني صفحة ٤٥٣ من المقتبس

ابتاعه صالح صاحب المصلى بعشرين ألف دينار فاحضره ليكون عوضاً عما سقط منه فلم يره عوضاً . ووهب المأمون للعسن بن سهل عقداً قيمته ألف ألف درهم ومائة ألف درهم وستة عشر ألف درهم . وكان فيما أهدى ملك الهند الى كسرى جام يانوت احمر فقه شبر في شبر مملوء دراً قيمة كل درة ألف وخمسة مائة مثقال . وكان لعمود صاحب غزاة حجر يانوت كنصاب المرأة اذا ركب قبض عليه يمينه فتبين طرفاه من جانبي يده حيث ينظر اليه الناس

ولما انهزم ابو الفوارس بن بهاء الدولة من اخيه سلطان الدولة بن بويه اباع جوهرتين كانتا على جبهة فرسه لزين الدولة بعشرين ألف دينار فقال له من غطك تجعل هذا على جبهة فرسك وهذه قيمتها . ووجد في خزان مروان بن محمد مائدة جزع ارضها بيضاء فيها خطوط سود وحمرة وسعتها ثلاثة اشبار وارجلها ذهب يقال لها انها صنعت على شكل المشتري من اكل عليها لا يشبع ولا ينجم (٩) ووجد في خزانته ايضاً جام زجاج فرعوني محكم غلط اصبع وفتحه شبر وفي وسطه اسد ثابت وقدمه رجل جاث على ركبتيه وقد وضع سهماً سيفه قوس يده يريد ان يرمي الاسد ولم تعرف له خاصية وكان لاوشروان بساط يسعيه بساط الشاه مرصع بالزرق الجواهر واحمره واصفره وايضه واخضره فعمل اخضره مكان اغصان الاشجار والوانه بتوضع الزهر والنوار فلما اخذ في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في وقعة القادسية حمل اليه في الفيل فلما رآه عمر قال ان امة ادت هذا الى اميرها لانهاء ثم فرقه فوقع منه لعلي بن ابي طالب قطعة في قسمه مقدارها شبر في شبر باعها بخمسة عشر ألف دينار

ولما فتح الملك الظاهر ركن الدين يبرس رحمه الله سيس دخل بعض الغلمان الى دار صاحب سيس فوجد نرداً يباذقه ياقوت احمر واصفر وسكر جنة من حجر الماس ورقعة زر كش فخطف الغلام النرد فوقع منه قطعتان تركهما داعشاً فوقعت القطعتان المتبقيتان في يد الملك الظاهر فقال ما كان الا كاملاً فاستدعى بمراف سوق الصرف وأراه القطعتين وقال له ان مسكت من هذا قطعة مع احد الناس فعلت معك كل خير فما كان الا قليلاً وقد اتى الغلام ليبيعه فسك واقببه الى الملك الظاهر فوجد الباقي معه فاخذه الملك الظاهر ودفع الى الغلام عشرة آلاف درهم

ولما كان الملك المنصور قلاوون رحمه الله بدمشق سنة اثنين وثلاثين وستائة احضر اليه من المدرسة الجوهريّة مائدة ذهب وزنها ثمانية ارطال وربع بالدمشقي وعليها تمثال

دجاجة من ذهب وصيصان من ذهب في منقار ~~شكل~~ واحد لؤلؤة بقدر الحصاة وفي منقار الدجاجة ذرة بقدر البندقة وفي وسط المائدة سكرجة من زمرد سمعتها مثل كفة الميزان التي للدرهم السوقي الكبير مملوءة حبات من الدر قليل ان الملك الناصر صاحب حلب اودعها لنجم الدين الجوهري فاكنزها بدهايز مدرسته فوثى بها الى الملك المنصور جارية من جواري الجوهري وكان تلى جميع المائدة شبكة من ذهب منسوج صغيرة الاعمى حاوية لكل ما في المائدة ولها ثمان قوائم

واهدى مقدم زاوية عكا الى الملك المنصور طشتاً من ذهب في وسطه بيت مربع له اربع خروق في اسفله بدخل منها دم الفصاد الى داخل البيت وفي البيت بسقفه تمثال انسان متواري في البيت ورأسه وعنقه بارز من سقفه وكلما سقط في الطشت من دم الفصاد وزن عشرة دراهم ارتفع ذلك التمثال بصدرة وظهرت على صدره كتابته عشرة الغرام ولا يزال كذلك الى مقدار ثلاث اواق دمشقية فيقف التمثال قائماً ويسمع من جوفه كلمة يونانية معناها حبك حبك اه

نقول ولا عجب فيما رواه شيخ الربوة في هذا الشأن ولكن من عرف ثروة العالـ و ثروة الملوك في القرون الوسطى لا يستعظم ما يبلغه من تلك الاخبار فقد ذكر ياقوت ان علي بن احمد الرامي كان من عظماء العال وأفراد الرجال في أيام المقتدر ووزارة علي ابن عيسى وكان ينقل من حد واسط الى حد شهزور وكورتين من كور الاهواز جنديسابر والسوس وبادرايا وباكسياو كان مبلغه خمسمائة الف الف واربعمئة الف دينار في كل سنة ولم يكن للسلطان معه عامل غير صاحب البريد فقط لان الحرث والخراج والضبايع والشجر وسائر الاعمال كانت داخلًا في ضمائه فكان ضابطاً لاعماله شديد الحماية لها من الاكراد والاعراب والصوص وخلف مالاً عظيماً وقد حمل من تركته لانه لم يعقب ما هذه نسخته : العين اربعمائة الف وخمسة واربعون الفاً وخمسمائة وسبعة واربعون ديناراً البرق ثلاثمائة الف وعشرون الفاً وتسعمائة وسبعون مثقالاً آية الفضة الف وتسعمائة وخمسة وسبعون رطلاً وما وزن بالشاهين من آية الفضة ثلاثة عشر الفا وستائة وخمسة وخمسون درهماً ومن الند المعمول سبعة آلاف واربعمئة مثقال ومن العود المصري اربعة آلاف واربعمئة وعشرون مثقالاً ومن العنبر خمسة آلاف وعشرون مثقالاً ومن نوافج المسك ثمانمائة وستون ناخلة ومن المسك المنشور الف وستائة مثقال ومن المسك الفا الف وستة واربعون مثقالاً ومن البرمكية

الف وثلاثمائة وتسعة وتسعون مثقالاً ومن الغالية ثلاثمائة وستون مثقالاً ومن الثياب المنسوجة بالذهب ثمانية عشر ثوباً قيمة كل واحد ثلاثمائة دينار ومن السروج ثلاثة عشر مريعاً ومن الجواهر حجرات باقوت ومن الخواتيم الباقوتية خمسة عشر خاتماً خاتم فسه زبرجد ومن حب اللؤلؤ سبعون حبة وزنها تسعة عشر مثقالاً ونصفاً ومن الخيل الفحول والاناث مائة وخمسة وسبعون رأساً ومن الخدم السودان مائة واربعة عشر خادماً ومن الغلمان البيض مائة وثمانية وعشرون غلاماً ومن خدم الصقالية والروم تسعة عشر خادماً ومن الغلمان الاكبرار سبعون غلاماً بالآتهم وسلاحهم ودوابهم ومن اصناف الكسوة ما قيمته عشرون الف دينار ومن اصناف الفرش ما قيمته عشرة آلاف دينار ومن الدواب المهارى والغال مائة وثمانية وعشرون رأساً ومن الجوازات والجمازات تسع وتسعون رأساً ومن الخيول الثقيلة الكبار تسعون رأساً ومن قباب الخيام الكبار مائة وخمسة وعشرون خيمة ومن المواجج والاسروج اربعة عشر هودجاً ومن العصائر الصيني والزجاج المحكم الفاخر اربعة عشر صندوقاً اهـ

ووصف شيخ الربوة خلعان النيل وخراج ارضه فقال خلعجان النيل وهي سبعة كل واحد منها بحر احدها خليج الاسكندرية والثاني خليج ديباط والثالث خليج فيوم والرابع خليج دوس والخامس خليج المنهى والسادس خليج سخا والسابع خليج القاهرة ولميس وهذه الخلعجان كان خراج النيل بها في ايام كية اوس احد ملوك العالم الاول مائة الف الف وثلثين الف دينار وجباه عمرو بن العاص في ايام معاوية اثني عشر الف الف دينار وجباه عبد الله بن ابي سرح اربعة عشر الف الف دينار وجباه القائد جوهر مولى العبيد بن ثلاثة آلاف الف دينار ومائتي الف قال المعتنون بعلم ذلك ان سبب نقمقره ان الملوكة لم تسمح نفوسها بما كان يصرف في الرجال المتوكلين بحفر خلعجانه واصلاح جسوره ورزم قناطره وسد ترعه وكانوا على ما حكاه ابن طيعة مائة الف رجل وعشرين الف رجل مرتين على كور مصر سبعون الفاً للصعيد وخمسون الفاً لاسفل الارض

ويقال ان ملوك القبط كانوا يقسمون الخراج اربعة اقسام قسم لخامسة الملك وقسم لارزاق الجند وقسم لمصالح الارض وقسم آخر لحادثة تحدث ومسحت ارض مصر في ايام هشام بن عبد الملك بن مروان فكان مايركبه الماء العامر والغامر مائة الف الف فدان واعتبر احمد بن المدير ما يصلح للزرع بمصر وقت ولايته فوجده اربعة وعشرين

الف الف فدان والباقي قد استبحر وتلف واعتبر مدة الحرث فوجد هاستين يوماً والحرث الواحد يحرق خمسين فداناً فكانت محتاجة الى اربعمائة الف حرث واربعين الف حرث والله اعلم

كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتاباً الى عمرو بن العاص وكان عاملاً بمصر يقول: اما بعد يا عمرو اذا أتاك كتابي فابحث الي جوابه تصف لي مصر ونيلها واوضاعها وما هي عليه حتى كأني حاضرها فاعاد عليه مكتوباً بجواب كتابه يقول: بسم الله الرحمن الرحيم اما بعد يا أمير المؤمنين فانها تربة غبراء وحشيشة خضراء بين جبلين جبل رمل وجبل كأنه بطن أقب وظهر اجب مكتفها ورزقها ما بين أسوان الى ما اشد البر يخط وسطها نهر مبارك الغدوات يمتون الروحات يجري بالزيادة والنقصان كجاري الشمس والقمر له اوان تظهر اليه عيون الارض ومناجمها مسخرة له بذلك ومأمورة له حتى اذا اطلع من عجاجه وتقطعت امواجه واغلولت لجبهه لم يبق الخلاص الى القرى بعضها الى بعض الا في حقاف العقاب او صفار المراكب التي كأنها في الحبال ورق الابايل ثم عاد بعد انتهاء اجله تكس على عقبه كأول ما بدا في دربه وطما في سره ثم استبان مكتونها ومخزونها ثم انتشرت بعد ذلك أمة مخفورة وذمة مغفورة لغيرهم ماسعوا به من كدم وما ينالون يجهدهم شعشوا بطون الارض وروايبها وروما فيها من الحب ما يرجون به التمام من الرب حتى اذا احرق فاستبق واسبل فتوانه سقى الله من فوفه لندى ورواه من تحته بالنرى وربما كان صاحب مكفر وربما لم يكن وفي زماننا ذلك يا أمير المؤمنين ما يعني ذبابة ويدر حلافة فيينا هي ير وتغبراه اذ هي لجة زرقاء اذ هي سندسية خضراء اذ هي دابة رقصاء اذ هي درة يضاء اذ هي حلة سوداء فتبارك الله احسن الخالقين وفيها ما يصلح احوال اهلها ثلاثة اشياء اولها لا تنبل قول رئيسها على خبيسها والثاني يؤخذ ارتفاعها بصرف في عمارة ترعها وجسورها والثالث لا يستأدى خراج كل صنف الا منه عند استهلاكه والسلام اهـ